

جريدة الجريدة

العدد ١٧٦ - ٢٥/١٢/٢٠٠٧

من ناصيف اليازجي الى ملحم بركات بلدة كفرشيما اللبنانية... مملكة الغناء والإبداع

بيروت - تغريد السميدي

جاءت بمن لحن أجمل الأغاني للسيدة فيروز وهو فيلمون وهبي، وجاءت أيضاً بأهم الفنانين والفنانات اللبنانيات ومنهم حليم الرومي، ماجدة الرومي، عصام رجي، ملحم بركات، ماري سليمان، كما خرج منها اليازجيون: ناصيف وأولاده ابراهيم و خليل وحيب ووردة... ومؤسساً جريدة الأهرام المصرية بشارة وسليم نقلا. من ربة الحكمة وقرية الفضة كفرشيما، احدى قرى جبل لبنان، خرج أهم الأدباء والفنانين والشعراء والملحنين اللبنانيين وهم يتقاسمون سر قريتهم الصغيرة الذي كان دافعاً لزيارتها، عسى أن يكشف ما تبقى من بيوتهم وأقاربهم لغزاً حيك بتميز الكفرشيماويين في كل الميادين.

الطريق الى كفرشيما وحده يسرد لك حكاية هذه القرية، وشعراؤها وأدباؤها وكبارها يستقبلون الزائر في شوارعها وأحيائها التي حملت أسماءهم. في ربوع جبل لبنان وعلى بعد ستة أميال عن العاصمة بيروت اعتكفت هذه القرية ككاهنة، وأمست بأطراف تلالها كي لا يبللها طابع المدينة الذي يحيط بالبلدة والذي قضى على غابات القرى المجاورة. كفرشيما بالسريانية هي قرية الفضة، وشيما باليونانية تعني ربة الحكمة، وفي بعض الروايات الشعبية هو ملك عظيم كفر، فسميت كفرشيما نسبة له. مهما يكن فهذه القرية هي أسطورة تبدأ حكايتها عند مدخلها الرئيس عبر شارع الشاعر أديب الفتى الذي ينتهي عند مفترق للطرق يؤدي أحدها الى مبنى قديم يعود الى العام ١٩٢٨ هو مبنى بلدية كفرشيما. هناك في هذه القرية الجبلية والتي يفصلها عن شاطئ البحر أقل من كيلومتر واحد، يصبح التميز والتفرد عن محيطها حكواتياً يتحدث عن ناس هذه القرية، التي تستلقي بدلال فوق تلة تعلو ثلاثمائة متر.

البلدية

في مبنى قديم ذي طابع قديم، تعلو فيه الأبواب والشبابيك الخشبية، وترتفع عند مدخله أبيات من الشعر، نظمها الشاعر ميشال كرم يقول في مطلعها « نزلت في القلب من هذا البلد/ مثل شمس نزلت برج الاسد»، الشعر والشعراء يرافقان الزائر الى داخل المبنى حيث رئيس البلدية طوني راضي يكمل حكاية كفرشيما والأصوات الكنائسية التي تفوق بجمالها ما اشتهر من فناني هذه البلدة، هو لا يعرف ما اذا كان السر في الماء أو الهواء أو التراب أو حتى في « بزرة» أهالي كفرشيما. مكتبه المفتوح لتكريم عمالقة الفن اللبناني الكفرشيماويين، مستعد أيضاً لاحتضان أية موهبة شابة و« ما أكثرها في كفرشيما» بحسب راضي الذي انسحب ليشرب قهوته الصباحية مع ابن الموسيقى فيلمون وهبي الذي دخل الى مكتب رئيس البلدية وكأنه داخل الى بيته. انحسب راضي لصالح أحد أدباء ومثقفي كفرشيما، وترك له باقي الحكاية كي يكملها،

هو الذي يحفظ كل شيء في كفرشيمما حتى حجارتها وسندياناتها التي ترتفع في سمائها، ولشدة ما يعرفه من تفاصيل عن القرية قال عنه أحد الأهالي « يعرف كل كنيسة وكل «متى وأي ساعة تعمر».

الفتى

هو رجل سيعيني، بكامل نشاطه وتألقه، له صوت كنائسي رصين ورثه هو أخوه إميل عن أبيه الذي كان يرتل في قداديس الأحاد وأورثه لإبنته المطربة ميراى. هو نقولا نجيب الفتى الذي يعرف كل شيء عن كفرشيمما منذ انتقلت إمارة جبل لبنان الى الشهابيين وكانت بلدته ضمن تلك الإمارة. هو الذي عاصر كبار المثقفين والأدباء والشعراء في كفرشيمما يزعمه أن يختصر الحديث على فنانيتها كملحم بركات وماجدة الرومي وفيلمون وهبي بالرغم من الاحترام الذي يكنه لهم، لكن برأيه أن كثيرين خرجوا من كفرشيمما وبرعوا في ميادين شتى يستحقون أن يكتب عنهم، لذا كان كتاب « تاريخ كفرشيمما» الذي جمعه من حكايات حفظها من أجداده ومن مخطوطات مكتوبة بخط اليد يحتفظ بها في مكتبته الشخصية وفي الكتاب ذكريات وأحداث جمعتها ببعض الاسماء المعروفة في كفرشيمما. ومن قصة الدير الذي اتخذ الشاعر ناصيف اليازجي أحد غرفه مكتباً له الى كنيسة مار تقلا التي دفن تحت سنديانتها سليم تقلا أحد مؤسسي جريدة الاهرام المصرية الى باقي الكنائس السبعة الموجودة في كفرشيمما والتي تعد الكنيسة الانجيلية الموجودة فيها ثاني أقدم كنيسة في لبنان بعد كنيسة بيروت، ينتقل الفتى في الحديث عن تاريخ كفرشيمما التي ما زال يقبع فيها عدد من قصور الشهابيين حتى الآن. ويسرد ما يعرفه، وهو كثير، عن آل الشميل الذين اشتهروا بدراسة الطب وهم ستة أخوة، كان أولهم الدكتور شبلي الشميل الذي تخرج من الجامعة الاميركية عام ١٨٧١ ، وكذلك تطرق الفتى الى رجال العلم والاختراع ومنهم عالم الفيزياء ادوار ابو واكد، وهو الان من كبار موظفي وكالة الفضاء الاميركية (ناسا)، وسمير داغر وهو أحد مديري الجامعات الاميركية في أميركا. أما في الشعر فبرز سليم سليم، سليم نهر، الياس فرحات، الاخوان الياس وميشال القهوجي، وديع سليمان، شكري الله قشوع، طانيوس الرجي وكثيرون آخرون يتذكرهم الفتى جيداً ولم ينس أن يذكر أباً منهم.

وكما في الأدب، برع أهالي كفرشيمما في السياسة ومنهم أمين كسباني الذي كان أمين سر الملك جورج ملك بريطانيا العظمى وكذلك عمل مستشاراً للملك فيصل الاول. أما في الصحافة، فظهر جيلان من كفرشيمما كان آل اليازجي وآل تقلا أبرز وجوه العصر الأول، أما الجيل الثاني فأبرز الصحافيين فيه كان صاحب جريدة الاردن الصحفي خليل بك نصر، مؤسس وصاحب المطبعة الرشيدية رشيد فارس نصر، وشقيقه مؤسس جريدة الاقدام في فلسطين طانيوس فارس نصر والتي ناضل فيها ضد البريطانيين والاسرائيليين، بالإضافة الى هؤلاء هناك رسام الكاريكاتور السياسي بيار صادق ومذيعة الاخبار يولا سليمان.

ومرة أخيرة ينتقل دور الراوي من نقولا الفتى الى كتابه الذي يختم حكاية كفرشيمما عند اليازجيين حيث جاء فيه «من محركي الحركة القومية العربية وأبرز رواد النهضة العربية، هما اللغوي والشاعر ناصيف اليازجي وابنه ابراهيم. وكان الشيخ ناصيف اليازجي ولد في كفرشيمما عام ١٨٠٠ وهو من أسرة حورانية الاصل حمصية الموطن، والتي كان أحد أسلافها كاتباً عند أحد الولاة فلقب باليازجي وهي كلمة عثمانية معناها الكاتب وعرف عن الشيخ ناصيف أنه ولد في بيت مشهور بمحافظته على العادات والتقاليد اللبنانية

العريقة وكان كذلك محافظاً على فصاحة لغته يحب الكلام باللغة الصحيحة. أما تعويد أهل بيته الكلام الصحيح فيظهر من نبوغ معظم أولاده الإثني عشر ومنهم الشيخ حبيب، العلامة الشيخ ابراهيم، والشيخ خليل، والشيخة وردة». ويذكر الفتى في كتابه أنه ذات يوم قال الشيخ ناصيف لإحدى بناته «ناوليني القينة بكسر القاف» فأتته بها وقالت يا أبي «هاك القينة» (بالفتح) فقال «اكسريها»، فرمت بها على الأرض فانكسرت، فضحك وقال «انما اردت أن تكسري قافها، لا أن تكسريها كلها».

أما عاداته في الكتابة فكانت على الطريقة القديمة، فكان يجلس على الأرض متربعاً، يمسك القرباس في يده مسنداً إياه الى ركبته، ويتناول قلم الغزار من مسحب دواته النحاسية التي لم تكن تفارق وسطه، وكان له جلد غريب على تلك الجلسة، وإطالتها لتحسين الخط.

أما الشيخ ابراهيم ناصيف اليازجي الذي ولد عام ١٨٤٧ فباشر حياته الادبية، وهو دون العشرين، فعلم في المدرسة الوطنية للمعلم بطرس البستاني حيث كان يقوم مقام أبيه اذا تغيب وكذلك درس في المدرسة البطريركية حيث لا تزال صورة اليازجين مرفوعة حتى الآن. وفي العام ١٨٩٣، ترك الشيخ ابراهيم بيروت الى اوروبا ومن ثم عاد الى مصر فنشر فيها سنة ١٨٩٧ مجلة «البيان» التي استمرت سنة واحدة. بعدها أنشأ مجلة «الضياء» التي صدر عددها الاول عام ١٨٩٨ وظلت تصدر حتى وفاة مؤسسها بسرطان الكبد عام ١٩٠٦، فنقل رفاتة من القاهرة حيث وافته المنية الى بيروت، ودفن الى جانب والده في مقبرة الزيتونة.

كفرشيمابيات

وكما برزنا سيدات كفرشيماء في الفن كذلك لمعنا في الادب ومن أبرزهن ابنة ناصيف اليازجي، الشيخة وردة (١٨٣٨-١٩٣٤) التي كانت احدي ممثلات الادب العربي النسائي في نهضته الحديثة، وشقيقة أمين كسباني مستشار الملك فيصل هناء كسباني كوراني، ولبية ماضي هاشم التي تعلمت على يد الشيخ ابراهيم اليازجي وأنشأت مجلة «فتاة الشرق».

وفي نهاية الجولة في هذه القرية اللبنانية، يصبح الزائر هو الحكواتي ويكون عليه هو هذه المرة أن ينقل باقي القصة للآخرين، ويصبح سر كفرشيماء الحكمة التي تعتمد عليها روايته، فلا يكشف عنها إلا في نهاية الحكاية، التي لم تنته حتى الآن، فكفرشيماء لا زالت تكتنز بمواهب كثيرة.

تقلا

لم يبق من مؤسسَي صحيفة الأهرام المصرية بشارة وسليم تقلا سوى رفات أحدهما في باحة كنيسة مار تقلا في كفرشيماء وبعض القصص والروايات التي ذكرها نقولا الفتى في كتابه. ولد سليم في كفرشيماء عام ١٨٤٩، وتلقى علومه الابتدائية في مدرسة القرية (أي تحت السندانية) ثم انتقل الى المدرسة الوطنية للمعلم بطرس البستاني، حيث تتلمذ على يدي الشيخ ناصيف اليازجي، ثم عاد وعلم في تلك المدرسة وفي المدرسة البطريركية، وعام ١٨٧٥ سافر الى مصر وتحديداً الى الاسكندرية حيث نال امتيازاً باصدار جريدة الأهرام. فأصدرها عام ١٨٧٦ ثم استقدم أخاه بشارة، وكان عمره

٢٤ عاماً، فشاركه في الإدارة والتحرير وكان له جولات معروفة وإن كان لها عواقب وخيمة كتلك المقالة التي نشرها عام ١٨٧٩ بعنوان (ظلم الفلاح)، مستهدفاً بها الخديوي اسماعيل باشا ، فعُطلت الجريدة وسُجن الكاتب فاضطر أخوه سليم الى التواري عن الأناظر مدة. وكان للأهرام أن تصاب بنكبة ثانية، وذلك سنة ١٨٨٢ أثناء الثورة العرابية (نسبة الى عرابي باشا) التي طالت شرارتها الاسكندرية فاضطر الاخوان تقيلاً الى العودة الى لبنان. كما كانت مطبعة الاهرام ومكاتبها من ضحايا حريق الاسكندرية، ولم تكذ تنفرج الازمة حتى عاد الاخوان تقيلاً الى مصر، فاستأنفا نشر الاهرام، فأخذت تشق طريقها في طليعة الصحف في العالم العربي. وبعد وفاة سليم عام ١٨٢٩ تسلّم بشارة مشعل الاهرام مصطدماً بالتيارات الخديوية، العثمانية، الفرنسية والانكليزية وذلك حتى وفاته عام ١٩٠٢، عندها حمل ابنه الوحيد جبرائيل مشعل الاهرام، لتبقى في طليعة الصحف العربية.

جريدة الجريدة